الوحدة الدلالية لسورة الجاثية

دراسة نصية

إعداد

أ. الطاهر ضو بشير

الجامعة الأسمرية الإسلامية

الحمد لله رب العالمين. حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شاء من شيء بعد

اللهم صلّ على محمد وعلى آل بيته وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل بيته وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد

❖ توطئة:

تتناول السورة القرآنية، غالبا، موضوعاتٍ متعددة، وأحياناً موضوعاتٍ كثيرة، وذلك ما أوهم بعض الدارسين بأنه لا طائل من البحث عن دلالةٍ محوريةٍ لها.

في حين أكّد جمعٌ من الدارسين القدامى والمحدثين أن لكل سورةٍ قرآنيةٍ قضيةً مركزيةً تتفرع عنها كل القضايا الجزئية التي تشغل مساحتها؛ ولكن على الرغم من أن بعض المحاولات الجادة قد استهدفت إثبات هذه الفكرة إجرائياً إلا أن معظم هذه الإشارات لم تتجاوز، على أهميتها ودقتها، إطار التنظير.

ومن أبرز محاولات الدارسين القدامى، على المستوى الإجرائي، قراءة الشاطبي النصية المجملة لسورة (المؤمنون)؛ حيث أكّد بدايةً، على المستوى النظري، أن سور القرآن الكريم قسمان: قسمٌ أنزل في قضيةٍ واحدةٍ طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصّل،وقسمٌ أنزل في قضايا متعددةٍ كالبقرة وآل عمران والنساء والعلق، وهذا القسم له اعتباران: "اعتبار من جهة تعدد القضايا فتكون كل قضية مختصة بنظرها ومن هنالك يلتمس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه (...) واعتبار من جهة النظم الذي وجدنا عليه السورة"[1]، وهذا النظم الذي هو توقيفي لا يلتمس منه فقهٌ على وجهٍ ظاهر، وإنما يلتمس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز وبعض مسائل أخرى "وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات، فاعتبار

[1] – الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي، (م2 /ج3 /ص375، 376).

جهة النظم مثلاً في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها"[1].

ويضرب لذلك مثلاً بسورة (المؤمنون) التي يرى أنها "نازلة في قضية واحدة وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها من المكيات وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى"[2].

وهذه المعاني الثلاثة هي: تقرير الوحدانية لله الواحد الحق، وتقرير النبوة للنبي محمدﷺ وأنه رسول الله إليهم جميعا صادقٌ فيما جاء به من عند الله، وإثبات أمر البعث والدار الآخرة وأنه حق لا ريب فيه بالأدلة الواضحة والرد على من أنكر ذلك[3].

ويرى أننا إذا نظرنا في سورة (المؤمنون) "وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة التي هي المدخل للمعنيين الباقيين وأنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ترفعاً منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن جاءت فكانت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى"[4].

وبعد أن يفيض في الحديث عما احتوته فاتحة السورة وما تضمنته السورة من قصص وعلاقة كل ذلك بموقف قريشٍ من النبيﷺ يقول: "فهذا النظر إذا اعتبر كليا في السورة وجد على أتم من

[1] – نفسه، الجزء نفسه، ص376.

[2] – الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي، (م2 /ج3 /ص377).

[3] – ينظر نفسه، الجزء نفسه، ص377، 378.

[4] – نفسه، الجزء نفسه، ص378.

هذا الوصف لكن على منهاجه وطريقه ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن فالباب مفتوح والتوفيق بيد الله فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد"[1].

أما الدراسات الحديثة فمن أبرزها وأسبقها دراسة سورة البقرة للدكتور محمد عبد الله دراز التي تضمنها كتابه القيم: (النبأ العظيم)؛ حيث يؤكد، قبل شروعه في تحليلها، أنك تقرأ السورة الطويلة المنجمة التي "يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي – لو تدبرت– بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول"[2].

ثم يبين أنه لا يستهدف الكشف عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض؛ بل أن يعرض السورة عرضاً واحداً يرسم به خط سيرها إلى غايتها ويبرز به (وحدة نظامها المعنوي) في جملتها، ويقسم (نظام عقد المعاني) إلى مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة[3].

والواقع أن ما ذهب إليه الشاطبي ودراز وغيرهما من أن لكل سورةٍ قرآنيةٍ محوراً نصياً تدور عليه معانيها جميعاً هو رأيٌ صحيح؛ لكن الكشف عن هذا المحور لأي سورةٍ يتطلب تأملاً عميقاً متأنياً به يتمكن الباحث من القبض على طرف الخيط الدلالي الرفيع ومن تتبع مساره عبر النص المدروس من بدايته إلى نهايته موظفا التحليل النصيّ المنهجيّ الذي يمكنه من إثبات وجود دلالةٍ مركزيةٍ ومن عرض تجلياتها في أجزاء النص المختلفة والمتعددة.

[1] – نفسه، الجزء نفسه، ص380.

[2] – النبأ العظيم. نظرات جديدة في القرآن الكريم، د.محمد عبد الله دراز، ص 188.

[3] – ينظر النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص 191 وما بعدها.

❖ سورة الجاثية: قراءة نصية:

تكشف القراءة المتأنية للنص عن بروز قضية استخفاف فريقٍ من الناس بالحقيقة التي تثبتها الآيات الكونية والنصية السماوية، وإصراره على اتباع الهوى استكباراً وعناداً رغم معرفته التامة بوجه الصواب، واستحقاقه بذلك عقوبة التطويح به في متاهة الضلال، وهي الدلالات التي يفصح عنها، مجتمعةً، قوله تعالى في وسط السورة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾[الجاثية:23].

تبدأ صورة هذا الفريق من الناس في الظهور منذ الآية السادسة من السورة؛ أي بعد استعراض مجموعةٍ من الآيات الكونية التي لا تخطئ كنهها بصيرة من يؤمن بالحقيقة الواضحة ويوقن بالأدلة القاطعة ويعقل تجليات الظواهر المحيطة به.

أ.1. تفتتح السورة بالحروف المقطعة (حم)، التي اختلفت في شأنها آراء المفسرين، قبل أن تعلن الآية الثانية أن العزيز الحكيم الذي لا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض هو الذي أنزل هذا الكتاب مشتملاً على أدلة التوحيد التي منها خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والدواب واختلاف الليل والنهار ونزول المطر من السماء محيياً الأرض بعد موتها وتصريف الرياح.

هذه الآيات الكونية التي تعرضها آياتٌ نصيةٌ معجزةٌ تكفي لإثبات أن مبدع هذا الكون هو إلهٌ واحدٌ محيطٌ بكل شيءٍ وقادرٌ على كل شيء، ذلك لمن يبحث عن حقيقة الوجود ليؤمن بها، ولمن يبحث عن الأدلة المقنعة ليخرج، مستنداً إليها، من حيرة الشك إلى طمأنينة اليقين، ولمن يوظف ملكة العقل في تأمل ظواهر الكون لاكتشاف حقيقة الوجود والوصول إلى طمأنينة اليقين.

أ.2. تلك الآيات النصية، التي يتضمنها الكتاب كله، لا تحتوي على أدلة التوحيد فحسب؛ بل على أدلة البعث والحساب، أيضاً، وكذلك على أدلة نبوة محمدﷺ وعلى أنها، هي نفسها،

منزّلةٌ من الله العزيز الحكيم موجد الكون والإنسان؛ لكن كل تلك الإثباتات، الكونية والنصية، لا تكفي لإقناع من يرفض الاقتناع مسبقاً، ولا تكفي لهداية من يبحث عن إشباع شهواته وليس عن اكتشاف حقيقة الوجود.

إن هذا النوع من الناس ليس مستعداً أصلاً لمجرد الإصغاء لآيات الله تتلى عليه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾[الجاثية:6].

(واو الجماعة) من الفعل المضارع (يؤمنون) يعود على هذا الفريق من الناس الذي تزيد الآيات الأربع التالية لهذه الآية صورته وضوحاً ودقة: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠﴾[الجاثية:7- 10].

نحن، إذن، إزاء فريقين:

- فريقٍ وصفت آيات استعراض الآيات الكونية الدالة على كمال قدرة الله ﷻ ووحدانيته أفراده بأنهم (يؤمنون ويوقنون ويعقلون)، وهؤلاء لم يتبع أيٌّ منهم نفسه هواها؛ بل تفكر في خلق السموات والأرض قائلاً بلسان الحال والمقال: (ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)، وإذا تليت عليه آيات الله ﷻ زادته إيمانا.

- وفريقٍ أعرض مستكبراً عن تأمل الآيات الكونية وتدبر الآيات النصية، واتصف بكثرة الكذب، وبالغ في اقتراف الآثام، فشبهت الآيات حالهم "في عدم انتفاعهم بالآيات بحالهم في انتفاء سماع الآيات، وهذا التشبيه كناية عن وضوح دلالة آيات القرآن بحيث أن من يسمعها يصدق بما دلت عليه فلولا إصرارهم واستكبارهم لانتفعوا بها"[1].

[1] – تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور،(332/25).

والأدهى والأمر أن الواحد منهم إذا فقِه مما بيّنته الآيات شيئاً وعلم أنه الحق اتخذ هذه الآيات هزؤاً في الوقت الذي كان يجدر به أن يخرّ ساجداً لله ﷻ في خشوعٍ وخضوع، وفي ذلك ما يؤكد أن سبب إصراره على الكفر ليس الجهل؛ بل العناد الأصم واتباع الهوى؛ لذا فقد أوجب لنفسه العذاب المهين في الآخرة الذي لن ينجيه منه ماله ولا أملاكه ولا ما اتخذ من دون الله ﷻ من أولياء وآلهة.

أ.3. ﴿هَٰذَا هُدىً ﴾[الجاثية:11]؛ أي هذا القرآن "بيان ودليل على الحق، يهدي إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه"[1]، أما من كفر بآياته زهداً في الحق واتباعاً لنداءات النفس الأمارة بالسوء المؤثرة لإشباع الشهوات على حساب الامتثال لأوامر الله ﷻ فله عذابٌ من رجزٍ أليم.

بذلك تتضح ملامح أتباع الهوى بقدرٍ كافٍ من التفصيل، ويتقرر أن ما يدفعهم إلى اتخاذ هذا الموقف السلبي من دعوة الحق ليس عدم كفاية الأدلة ولا ضعفها؛ ولكن، مع ذلك، لا بدّ من عرض أدلّةٍ أخرى تتضمن إشاراتٍ إلى نعم الله ﷻ عليهم تذكيراً لهم بأن ما اتخذوا من دون الله من أولياء لا يملكون لهم ولا حتى لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وأن الله ﷻ هو وحده المنعم المتفضل، ومن ثم فهو الجدير بالعبادة دون من يُعبدون بدون وجه حق، فيأتي العرض التذكيري بأسلوب الخطاب موجَّهاً لمن أجاب داعي الله ﷻ ومن لم يجبه على حدٍّ سواء، مردفاً الحجج الدالّة على ربوبية الله ﷻ ووحدانيته بذكر آثارها التي منها تسخير السفن في البحار حاملةً للأقوات والمتاجر رجاء أن يشكر الناس ما أنعم الله ﷻ به عليهم، ومنها تسخيره ما في السموات والأرض من شموسٍ وأقمارٍ وبحارٍ وجبالٍ لينتفع الناس بها في مرافقهم وشئونهم المعيشية[2].

[1] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، (143/25).

[2] – ينظر تفسير المراغي، (25/ 146).

في هذا السياق يتكرر قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾ مرتين لشدّ انتباه المخاطبين، ومن بينهم أتباع الهوى، إلى ضرورة مقابلة العناية الإلهية غير المحدودة بالعباد بالتسليم والخضوع وليس بالكبر والعناد، فإذا كان القادر الذي لا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض ولا يُلزِمه أحدٌ من خلقه بفعل شيءٍ أو تركه يتفضّل على عباده بكل هذه النعم فإن من واجب هؤلاء أن يقابلوا هذه النعم بالشكر لا بالكفر.

يتصل بهذا العرض التذكيري، الذي يُختم بدعوة الجميع للتفكر في هذه الآيات، دعوةٌ للذين استجابوا لربهم بالتجاوز عن إساءات الذين لا يرجون أيام الله تأليفاً لقلوبهم[1]، وإمهالاً لهم قبل أن ينزل بهم بأس الله ﷻ ونقمته، وادّخاراً لقوة أتباع الحق لاستخدامها حين تصل حدة الموقف بينهم وبين أتباع الهوى إلى درجة القتال؛ فالأيام "يعبر بها عن الوقائع"[2]، وقال الطبري في تفسير الآية "قل يا محمد للذين صدَّقوا بالله واتبعوك، يغفروا للذين لا يخافون بأس الله ووقائعه ونقمه إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه"[3]، وبناءً عليه فالمقصود بقوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[الجاثية:14]؛ أي: "لا يتوقعون وقائعه بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعهم، أو لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم ووعدهم بها"[4].

وذلك يعني أن عقوبات الذين يتخذون آيات الله هزؤاً ويسخرون من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ والمؤمنين عموماً متعددةٌ ومتنوعة؛ منها ما هو دنيويٌّ كالختم على قلوبهم وأسماعهم وجعل الغشاوة على أبصارهم ومعاقبتهم بالبلايا والرزايا وبأيدي المؤمنين، ومنها ماهو أخرويٌّ وهو العذاب المهين، وفي ذلك يقول الله ﷻ ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوا ٥٦ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ

[1] – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (149/4).
[2] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (م8 /ج16 /ص162).
[3] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، (25 /144).
[4] – أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، (2 /380).

ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدا ٥٧ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلا ٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدا ٥٩﴾[الكهف:56 – 59]، ويقول ﷻ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْما ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيق مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[المؤمنون:101 – 111]، وقد توعّد الله ﷻ في سورة (التوبة) طائفةً منهم تظهر الإيمان وتبطن الكفر بقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَة تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِج مَّا تَحْذَرُونَ ٦٤ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَة مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ٦٦﴾[التوبة:64 – 66]، وبقوله في السورة نفسها: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ٨٢﴾[التوبة:82].

وإذا ظن هؤلاء أنهم باتخاذهم آيات الله هزؤاً وبسخريتهم من النبي ﷺ ومن الذين آمنوا يسيئون لهم ولدين الله ﷻ فهم واهمون؛ ذلك أنه من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، والفصل بين الفريقين المتخاصمين إنما يتمّ في عرصات القيامة بين يدي أحكم الحاكمين ﷻ؛ يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾[الفرقان:41 – 42]، ويقول ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم

٦١﴾[التوبة:61]، ويقول ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾[البقرة:212].

وبذلك يتضح أنه كلما بالغ أتباع الهوى في الإساءة لرسول الله ﷺ وللمسلمين عادت الإساءة عليهم، وانتفع المسلمون بصبرهم على الأذى والمكروه: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[الزُّمَر:10].

أ.4. يأتي ذكر بني إسرائيل بعد ذلك بوصفهم نموذجاً لمجتمعٍ بشريٍّ أسبغ الله ﷻ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة، وآتاه من العلم والمعرفة الدينية والدنيوية ما أضاء له سبيل الرشاد؛ لكنه آثر، رغم ذلك كله، اتباع الهوى والزيغ عن الصراط المستقيم.

وتنقسم النعم التي تفضّل بها الله ﷻ على بني إسرائيل إلى قسمين: نعم الدين، ونعم الدنيا؛ ولأن نعم الدين أفضل من نعم الدنيا فقد بدأ الله ﷻ بذكرها[1]؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾[الجاثية:16]؛ فالكتاب هو التوراة، وأما الحكم فيرى الرازي أن فيه وجوهاً؛ حيث يجوز في رأيه أن يكون المراد به "العلم والحكمة، ويجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات، ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه"[2]، والأرجح، في نظري، أن الحكم، الذي ذكرته الآية، يشمل هذه الأنواع مجتمعة، وأما النبوة فقد بعث الله ﷻ في بني إسرائيل من الأنبياء ما لم يبعث في غيرهم.

وبالإضافة إلى هذه النعم الدينية فقد تفضل الله ﷻ عليهم بنعمٍ دنيويةٍ أجمل ذكرها في قوله: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾[الجاثية:16]، فقد كان الله ﷻ قد مكّن لهم في بلاد الشام فأقاموا بها ملكاً عظيماً تُجبى إليه ثمرات كلّ شيءٍ وفضّلهم على أهل زمانهم بالنبوة والملك فجمع لهم بين شرف الدين وشرف الدنيا.

[1] – ينظر التفسير الكبير للرازي، (م14 /ج27 /ص227).

[2] – نفسه، الجزء نفسه والصفحة نفسها.

ثم قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[الجاثية:17]؛ أي أن أنبياءهم المتعاقبين (عليهم السلام) لم يتركوا أمراً مهماً من أمور الدنيا والآخرة إلا حسموه بقولٍ فصلٍ لا يقبل الجدال ولا المراجعة؛ فماذا كانت النتيجة؟.

النتيجة أنهم اختلفوا في الوقت الذي كان يفترض فيه أن يتفقوا؛ ذلك "أنهم لو اختلفوا اجتهاداً في طلب صوابٍ لكان لهم عذرٌ في الاختلاف، وإنما اختلفوا بغياً وقد تبينوا الحقائق"[1].

وهذا يعني أن اختلافهم لم يكن ناشئاً عن سوء فهمٍ للنصوص أو عن اختلافٍ في تأويلها؛ ومن ثم فإن المقصود من الإشارة إلى اختلافهم "التعجيب من حالهم كيف اختلفوا حين لا مظنة للاختلاف إذ كان الاختلاف بينهم بعدما جاءهم العلم المعهود بالذكر آنفاً من الكتاب والحكم والنبوءة والبينات من الأمر، ولو اختلفوا قبل ذلك لكان لهم عذرٌ في الاختلاف وهذا كقوله تعالى «وأضله الله على علم»"[2].

وفي ذلك بيانٌ للعلاقة الوطيدة بين هؤلاء وأولئك الذين اتبعوا أهواءهم ورفضوا الاقتناع بآيات الله البينات التي تتلى عليهم؛ حيث يصر الواحد منهم "على كفره وجحوده استكباراً وعنادا"[3]؛ فكذلك هو حال بني إسرائيل الذين اختلفوا بغياً بينهم "والبغي: الظلم. والمراد أن اختلافهم عن عمد ومكابرة بعضهم لبعض وليس عن غفلة أو تأويل، وهذا الظلم هو ظلم الحسد فإن الحسد من أعظم الظلم، أي فكذلك حال نظرائهم من المشركين ما اختلفوا على النبيء ﷺ إلا بغيا منهم عليه مع علمهم بصدقه بدلالة إعجاز القرآن لفظاً ومعاني"[4].

لقد وصف القرآن الكريم، في آياتٍ كثيرةٍ، أهل الكتاب بأنهم يتبعون أهواءهم وبأنهم يعرفون أن محمداً ﷺ هو النبي الخاتم كما يعرفون أبناءهم؛ يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ

[1] – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، (5 /84).
[2] – تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (346/25).
[3] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (4 /148).
[4] – تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، (346/25).

وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقا تَقْتُلُونَ ٨٧﴾[البقرة:87]، وقال ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾[البقرة:120]، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦﴾[البقرة:146].

وقد بيّن القرآن الكريم أن التشابه بين المشركين وأهل الكتاب يصل، تقريباً، إلى درجة التطابق؛ فقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَة كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْم يُوقِنُونَ ١١٨﴾[البقرة:118].

وفي انتظار أن يقضي الله ﷻ بينهم جميعاً يوم القيامة بحكمه يؤمر النبي ﷺ بالثبات على الشريعة التي جعله الله ﷻ عليها ويُنهى عن الركون إلى الذين لا يعلمون.

يأتي هذا الأمر في نهاية القسم الأول من النص/السورة إيذاناً بأن شريعة اللهﷻ أحق بالاتباع من أهواء الذين زينت لهم أنفسهم وشياطينهم عبادة ملذاتهم وشهواتهم والعمل على إشباعها بجميع الطرق المباحة وغير المباحة، فالخطاب وإن كان موجَّهاً للنبيﷺ إلا أن الأمر عام يشمل المسلمين جميعاً منذ بعثتهﷺ إلى قيام الساعة.

وقد وصفت الآية الكريمة مشركي قريشٍ والعرب بأنهم لا يعلمون رغم أن البلاغ قد وصلهم؛ لأنهم لم يكونوا أصحاب شريعةٍ قبل نزول القرآن الكريم ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُب يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِير ٤٤﴾[سبأ:44]؛ لذلك وصفهم اللهﷻ ، في سورة البقرة، بهذا الوصف في مقابل اليهود والنصارى الذين كانوا، بطبيعة الحال، أصحاب شرائع سماوية وإن كانت محرفة؛ فقالﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْء وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْء وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٣﴾[البقرة:113].

ثم إنهم، بعد أن سمعوا من آيات القرآن الكريم ما سمعوا، أصروا على رفضها ومعارضتها فكان شأنهم شأن من لا علم له لعدم انتفاعهم بهذا العلم، والوصف بهذا المعنى يشمل معهم اليهود والنصارى الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

وذلك ما يجعل الموالاة بين أتباع الهوى من أهل الكتاب والمشركين قائمة، ولها شواهد تاريخيةٌ متعددةٌ في حياة النبيﷺ حيث رثى كعب بن الأشرف، مثلاً، قتلى قريشٍ في بدر، وحزَّب حيي بن أخطب، في نفرٍ من اليهود، الأحزاب على رسول اللهﷺ والمسلمين[1]؛ لكن موالاة أيٍّ منهم لا تغني أحداً من الله شيئاً وعداوتهم لا تضرّ أحداً إلا بإذن الله، والله وليّ المتقين.

ب.1. يفتتح القسم الثاني من النص بقولهﷻ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدى وَرَحْمَة لِّقَوْم يُوقِنُونَ﴾[الجاثية:20]، ويعود اسم الإشارة (هذا) على القرآن الكريم كله بشكلٍ عامٍّ وعلى آيات هذه السورة بشكلٍ خاصٍّ في الوقت نفسه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن الباحث عن الحقيقة يستطيع الاستضاءة بآيات الذكر الحكيم ومنها آيات هذه السورة ليهتدي إلى الصراط المستقيم الذي لا يتيه عنه، بعد إنارته بالآيات البينات، إلا أعمى البصيرة المتّبع للهوى والشيطان، أما من كانت بصيرته قادرةً على إدراك الحق إذا اتضحت معالمه وبانت دلائله فسوف يستيقن أن هذا الكتاب ما أنزل إلا بالحق، ولن يجد مشقّةً في تطويع نفسه لاتّباعه ليكون له هدىً ورحمة.

ثم تنتقل الآيات إلى وصف صنفٍ آخر من ضلال أتباع الهوى "واستهزائهم بالوعد والوعيد وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاءَ على الأعمال وتخييلهم للناس أنهم يصيرون في الآخرة، على الحال التي كانوا عليها في الدنيا، عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الآخرة، وضعيفهم في الدنيا ضعيفهم في الآخرة، وهذا الانتقال رجوع إلى بيان قوله «مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ»"[2].

[1] – ينظر السيرة النبوية لابن هشام، (م2 /ج3 / ص11، 153).

[2] – تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (351/25).

وإذا كان الفرق، في الآخرة، بين حال الذين اجترحوا السيئات وحال الذين آمنوا وعملوا الصالحات شاسعاً جداً وغير محدودٍ فإن الفرق بين الحالين في الدنيا أيضاً كبير؛ "حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم بالله وسنن الرشاد وطمأنينة القلب، وأولئك على الضلال والجهل والعبث بالفساد واضطراب القلب وضيق الصدر، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَة ضَنكا»"[1].

فما أوتي فريقٌ من الذين اجترحوا السيئات من ثراءٍ ماديٍّ ليس مكتملاً، إذ تنقصه طمأنينة القلب التي منشؤها الاتصال الروحي بالله ﷻ، ثم إنه ليس مستمراً؛ حيث إنهم سيجرَّدون منه، حتماً، يوم القيامة، وقد يجرَّدون منه في الدنيا؛ لكن بصائرهم العمياء توهمهم بخلاف ذلك فساء ما يحكمون.

إن حكم الله الذي خلق السموات والأرض بالحق لا يوافق أهواء الذين ينكرون البعث عناداً واستكباراً، ويصرون، في الوقت نفسه، على أنهم إن بعثوا من قبورهم فإن مصيرهم في الآخرة سيكون أفضل من مصير فقراء المسلمين ومستضعفيهم؛ لأن الذي آثرهم في الدنيا بما آثرهم به من مالٍ وجاهٍ وسلطانٍ سيؤثرهم، إن أحياهم بعد موتهم، بخيرٍ منه؛ وقد روى القرآن الكريم، في سورة أخرى، قصة صاحب الجنتين وهو يحاور صاحبه المؤمن: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِم لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَة وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرا مِّنْهَا مُنقَلَبا ٣٦﴾[الكهف:35 – 36].

يريد الذين يتّبعون الشهوات أن يتّبع الحق أهواءهم ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ لكن الذي خلق السموات والأرض بالحق قضى بأن تجزى كل نفسٍ بما كسبت وهم لا يظلمون.

ب.2. ثم تصل السورة إلى تحديد قضيتها المركزية على طول المقطع الثاني من القسم الثاني الذي يمتدّ بين الآيتين (23 – 26) وخصوصاً في الآية الأولى منه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ

[1] – تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، (8 /430).

هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾[الجاثية:23].

تضمنت هذه الآية ثلاثة أساليب استفهام، الأول في مستهلها، والثالث في آخرها، وقبله مباشرةً يأتي أسلوب الاستفهام الثاني، في إشارةٍ إلى أن موقف المستهزئين الذين يتّبعون أهواءهم وشهواتهم غير مبرّرٍ ولا معقول.

وكيف يمكن أن يكون مبرّراً أو معقولاً بعد أن أقامت عليهم الآيات القرآنية الحجّة بوضوحها وقوة بيانها وبعد أن حثّتهم على تأمل الآيات الكونية التي كانت انشغالاتهم بالأمور الدنيوية قد شغلتهم عن إمعان النظر في حقيقتها؟.

إن إصرار المستهزئين بالآيات القرآنية والكونية على إنكار صحة الأدلة القاطعة جعلهم عرضةً لعقوبةٍ قاسيةٍ؛ حيث ختم الله على أسماعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فصار الواحد منهم كالدابة "فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها"[1]، فمن ذا الذي يهدي من هذه صفته؟.

يبدو محور القضية، هنا، هو قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾، فعلمهم بحقيقة ما تأتيهم به الآيات البينات قائم، ونفي العلم عنهم في بعض الآيات الأخرى مؤسّسٌ على قوة إنكارهم لما يعرفون أنه حق وعلى عنادهم غير المبرّر، فهم لا يختلفون، في هذه الصفة، عن أولئك الذين وصفهم الله ﷻ، في سورةٍ أخرى، بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [النمل:13 – 14].

لذلك يقول الله ﷻ في الآية التالية من النص المدروس: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[الجاثية:24]؛ فشأنهم

[1] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (4 /150).

شأن من جاءه خبرٌ غير سارٍ فتردد في تصديقه حتى وصلت به الرغبة في إنكاره إلى مرحلةٍ بين الشك واليقين ثم استسلم لفكرة أنه خبرٌ غير صحيحٍ حتى أتاه اليقين.

فعدم اليقين الذي عبّرت عنه الآية بلفظ الظن ليس ناتجاً عن عدم قوة الأدلة أو عن عدم وضوح الآيات؛ بل هو ناتجٌ عن قوة رفض الذات لما يخالف أهواءها وعن قوة إصرارها على اعتقاد ما يوافق هذه الأهواء.

لذلك نرى هذه الذوات تحاجج الحق بحججٍ واهيةٍ لا تستهدف إلا تمييع القضية وسدّ باب النقاش: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الجاثية:25]؛ إنها حجةٌ داحضة، فالآيات البينات تذكر، دائماً، أن البعث لن يكون قبل يوم القيامة: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الجاثية:26].

يتكرر وصفهم، هنا، بأنهم لا يعلمون، وفي ذلك تأكيدٌ لكونهم قد بالغوا في تمثيل دور من لم يقتنع بالحقيقة الواضحة حتى استطاعوا إقناع أنفسهم بأنهم غير مقتنعين بهذه الحقيقة، فصاروا جديرين بصفة الجهل التي تصفهم بها هذه الآيات وغيرها.

ب.3. ثم يأتي مشهد يوم القيامة مصوّراً حال جميع الأمم، ثم حال الفريقين اللذين اختلف موقفهما مما جاءت به الآيات البينات، وعلى الأخص حال الذين اتبعوا أهواءهم وأنكروا حقيقة البعث عناداً واستكبارا.

وقد استُهِلّ تصوير المشهد المثير للرهبة والخوف بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الجاثية:27] في إشارةٍ إلى أن اللهﷻ يبعث الموتى متى شاء وكيف شاء، فلا مُلزِم له من خلقه، وفي ذلك ردٌّ على أصحاب الأهواء الذين طلبوا بعث آبائهم في الحال، وظنوا أنهم سيكونون أولى من فقراء المسلمين بالنعيم الأخرويّ الذي لا يستيقنون بوجوده أصلا، والواقع أن

المبطلين* الذين اتّخذوا دين الله وآياته هزؤاً ولعباً سيصيبهم عذابٌ أليمٌ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧﴾[الجاثية:27].

وقبل الشروع في تفصيل مظاهر خسران المبطلين وإجمال مظاهر فوز المفلحين تعرض الآيات مشهد الأمم جميعها من لدن آدم إلى قيام الساعة جاثيةً، في المحشر، على الركب في انتظار الحساب مذعنةً لحكم الله الواحد القهار، "فالجاثي هو البارك المستوفز وهو هيئة الخضوع"[1]، وفي عرض هذا المشهد تعريضٌ بموقف أتباع الهوى من آيات الله المؤكّدة لحقيقة البعث والحساب الذي يتمثّل في إعراضهم، كبراً وعنادا، عن الإصغاء إليها بخشوعٍ وخضوع؛ فصورة الجثوّ على الركب تبين أن استكبار المبطلين في الدنيا ظاهرةٌ زائلةٌ بزوال الدنيا، وأن خضوعهم وجميع الخلائق لمن بيده ملكوت السموات والأرض أمرٌ متحققٌ ودائم، فمن لم يخضع، في الدنيا، طوعاً سيخضع، يوم القيامة، كرها، وسوف لن يفيده ذلك في شيءٍ لأن الوقت، آنذاك، سيكون قد تأخّر جداً.

في ذلك اليوم العصيب وفي ذلك الوضع الصعب سوف تُدعى كل أمةٍ إلى كتابها، ولن يكون بإمكان الذين يولّون مستكبرين، في الدنيا، إذا تليت عليهم آيات الله أن يكرّروا السلوك نفسه في ذلك الموقف المرعب؛ بل سيصغون بخشوعٍ وخضوعٍ لكل ما يُقرأ عليهم وما يقال لهم.

لقد رجّح ابن عاشور أن يكون المراد بالكتاب "كتاب الشريعة مثل القرآن، والتوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم وغير ذلك لا صحائف الأعمال، فمعنى «تدعى إلى كتابها» تدعى لتعرض أعمالها على ما أمرت به في كتابها كما في الحديث «القرآن حجة لك أو عليك» "[2]، وعلى ذلك تكون جملة ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[الجاثية:29]التي جاءت بعد جملة

* بَطِل في حديثه بطالة وأبطل: هزَل (...) وأبطل: جاء بالباطل (...) والتَّبَطُّل: فعل البطالة وهو اتباع اللهو والجهالة. لسان العرب [بطل].

[1] – تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، (367/25).

[2] – نفسه، الصفحة نفسها.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾[الجاثية:29] "تعليلا للجملة قبلها باعتبار تقييد النطق بأنه الحق، لأن أعمالكم كانت محصاة مبين ما هو منها مخالف لما أمر به كتابهم*"[1].

أما تذييل آية: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾[الجاثية:28] بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[الجاثية:28] ففيه تفنيدٌ لزعم عبدة الشهوات أنهم، إن بُعثوا، سيكونون أفضل حالاً من ضعفاء المسلمين وفقرائهم، وفيه تأكيدٌ على أن اتباع الهوى واتخاذ آيات الله هزؤاً لا يصل بصاحبه إلا إلى سوء المصير، وفيه تكرارٌ ضمنيٌّ لمضمون قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧﴾ [الجاثية:27].

تعرض الآيات التالية جزاء الفريقين؛ لكنها تجمل جزاء الذين آمنوا في آيةٍ واحدة (الآية 30)، وتفصّل جزاء المستهزئين بآيات الله في خمس آيات (31 – 35)؛ لكونهم موضوع قضية النص المحورية، فجزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات هو إدخالهم في رحمة اللهﷻ، وهذا تعبيرٌ عامٌّ يترك الفرصة للمتلقي أن يتخيّل مظاهر هذه الرحمة وأبعادها المختلفة معتمداً على آياتٍ أخرى كثيرةٍ تناولت ذلك بالتفصيل في غير هذه السورة.

وأما الذين كفروا فيُطرح عليهم، ابتداءً، سؤالٌ تقريريٌّ توبيخيٌّ عن موقفهم من آيات الله التي كانت تُتلى عليهم في الدنيا حين كانوا يُعرضون عنها استكباراً وإصراراً على معارضتها سلوكياً بأفعالهم الإجرامية.

إن الموقف الذي استعرضت المقاطع الستة الأولى من النص تجلّياته وفصّلت أبعاده يتكرر وصفه، هنا، في نهايات السورة، في شكل سؤالٍ تقريريٍّ يعيدهم إلى ماضيهم الدنيويّ، ويضعهم في مواجهةٍ مباشرةٍ معه؛ أي مع موقفهم من آيات الله التي كانت تُتلى عليهم عموما، ومن الآيات التي تؤكّد حقيقة البعث والحساب خصوصاً: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ

* كان ينبغي أن يقول كتابكم بعد إسناده لفظ (أعمال) إلى ضمير جمع المخاطبين.

[1] – نفسه، (369/25).

عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡما مُّجۡرِمِينَ ٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾[الجاثية:31 – 32].

فحقيقة موقفهم الدنيوي من أمر الساعة خصوصاً تتلخّص في كونه موقفاً متأرجحاً بين الإنكار المطلق ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾[الجاثية:32] والظن ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾[الجاثية:32]، وقد سبقت الإشارة إلى أن المرحلة الأولى من مراحل تشكّل هذا الموقف هي مرحلة اليقين بحقيقة البعث عند سماع الآيات التي تتناول قضية البعث وأدلته بالعرض والتفصيل؛ لكن إصرارهم على إنكار هذه الحقيقة التي استيقنتها أنفسهم، اتّباعاً لأهوائهم، يزعزع هذا اليقين في أنفسهم من جهة، ويعرّضهم لعقوبة الختم على قلوبهم وسمعهم وجعل الغشاوة على أبصارهم من جهةٍ أخرى، فيترتّب على ذلك وصولهم إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التأرجح بين الشك واليقين في صحة البعث، أما المرحلة الثالثة فهي هذه التي تعرضها هذه الآية وهي مرحلة التأرجح بين الشك والإنكار المطلق لحقيقة البعث والحساب.

وبناءً عليه يتجلى لهم جزاء سيئات أعمالهم ويحاصرهم استهزاؤهم بآيات اللهﷻ وبنبيهﷺ وبالمسلمين، فمن يعمل سوءاً يجز به؛ ولأن انشغالهم بالملذات والشهوات المباحة وغير المباحة عن التأمل في آيات اللهﷻ القرآنية والكونية واتخاذهم آيات الله هزؤاً واغترارهم بالحياة الدنيا قد أنستهم التفكير في البعث والحساب ودفعتهم إلى عدم المبالاة بحديث من يذكّرهم به فقد كان جزاؤهم الإهمال والترك في نار جهنم، وتلك عقوبةٌ تناسب سوء صنيعهم وتوافقه، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾[الجاثية:34]: "أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم"[1]، والخلاصة أن إنكارهم لحقيقة البعث والجزاء كانت نتيجته خلودهم في النار، واستكبارهم وإعراضهم عن سماع آيات الله إذ تتلى عليهم ترتّب عليهما عدم الاهتمام باعتذاراتهم وعدم العفو عنهم: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾[الجاثية:35].

[1] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (4 /153).

ب.4. وبذا يصل النص إلى خاتمته التي تضمنت آيتين: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[الجاثية:36 – 37].

فنص الآية الأولى منهما حكايةٌ لدعاء الذين آمنوا في الجنة أو تلقينٌ لهم إياه، وهو الدعاء الوارد في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[يونس:10].

ومن الملاحظ أن صيغة الدعاء، في النص المدروس، تضمنت زيادةً مفصّلةً لقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية:36] وهي قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ﴾[الجاثية:36]، فمن المعروف أن العالمين هو كل ما سوى اللهﷻ، ومعنى ذلك أن لفظ (العالمين) يشمل السموات والأرض وما سواها من الخلائق؛ لكن تخصيصها بالذكر يشي بأن اللهﷻ يتولّى عباده الصالحين في كل زمانٍ ومكان؛ ذلك أن بيده ملكوت كل شيء، وهو المسيطر على جميع خلقه، فليس ثمة من يحدث حدثاً إلا بإذنه في السموات ولا في الأرض، ومن ثم فليس ثمة ما يخشاه من توكل عليه سوى غضبه ونقمته، ومن عوفي من ذلك في الدنيا ونجا من النار يوم القيامة وأدخل الجنة قال: الحمد لله رب السموات ورب الأرض رب العالمين.

أما الآية الثانية من آيتي الخاتمة فتشير إلى أن كبرياء من اتخذ إلهه هواه كاذبةٌ وزائلة، فإذا كان، في الدنيا، يصرّ مستكبراً كأنه لم يسمع آيات الله تُتلى عليه فإنه سيذلّ ويخضع، في الآخرة، حين يقول اللهﷻ له ولأمثاله: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾[الجاثية:31].

فالكبرياء ليست الغطرسة والتعالي غير المبرّر؛ بل هي "العظمة والملك، وقيل هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود"[1]؛ لذا فإنه لا يوصف بها إلا اللهﷻ[2]، فقد روي أن رسول اللهﷺ قال: «يقول الله سبحانه: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار)»[أخرجه مسلم وابن ماجة واللفظ له] [3].

[1] – لسان العرب، مادة [كبر].

[2] – ينظر نفسه، المادة نفسها.

[3] – سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، (2 /1398)، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، (173/16).

ثم ختمت الآية والسورة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[الجاثية:37]، فالعزة، كما الكبرياء، للهﷻ وحده: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾[فاطر:10]؛ ولأنه كذلك فهو المعزّ لمن يشاء والمذلّ لمن يشاء، وقد اقتضت حكمته أن يعزّ عباده المؤمنين ويذلّ من ناوأهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[المنافقون:8].

كما اقتضت حكمته أن يجازي، في الآخرة، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يتيح لأوليائه المؤمنين فرصة القصاص ممن سخروا منهم في الدنيا واتخذوا آيات الله هزؤا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[المطفّفين:29 – 36].

❖ الأبعاد الجمالية:

▪ التناسب بين فواتح السورة وخواتيمها:

إذا ما استثنينا لفظ (حم) فإن آية: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾[الجاثية:2] هي الآية الأولى من آيات السورة، أما الآية الأخيرة فهي قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧﴾[الجاثية:37].

في كلتا الآيتين يصف اللهﷻ نفسه بـ(العزيز الحكيم)، ويقترن بهذين الوصفين، في الآية الأولى، الإعلام بأن الكتاب منزل من عند اللهﷻ، كما يقترن بهما، في الآية الأخيرة، قصر الكبرياء عليهﷻ في السموات والأرض، وقد بينت بقية آيات السورة أن من يعرض عن آيات هذا الكتاب ويصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها فإن الجبار المتكبر سوف يلقي هذا الذي اتخذ آياته هزؤاً ونازعه رداء الكبرياء في نار جهنم صاغراً ذليلاً مهانا.

بذلك تتضح العلاقة بين الإشارة إلى تنزيل الكتاب في الآية الأولى والإشارة إلى تفرد اللهﷻ بالكبرياء في الآية الأخيرة والعلاقة بين هاتين القضيتين ولفظ (العزيز) المرتبط دلالياً بجملة (وله الكبرياء)؛ فلا كبرياء إلا للعزيز المقتدر، أما الكائن الضعيف الذي لا يملك لنفسه ولا تملك له آلهته التي يعبدها من دون الله ضراً ولا نفعا، فكبرياؤه مزيفةٌ وزائلة.

أما ارتباط لفظ (الحكيم) بموضوعة تنزيل الكتاب فواضح؛ ذلك أن القرآن الكريم ينطق بالحكمة: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[النساء:113]، ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾[الإسراء:39]، بينما تتحدد العلاقة بين اللفظ نفسه وموضوعة العزة والكبرياء في كون القويّ القادر الذي لا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض يمهل الذين يتخذون آياته هزؤاً ويصدون عن سبيله حتى يجمعهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء، فإمهاله لهم هو فرصةٌ يتيحها لهم العزيز الحكيم ليعيدوا النظر في موقفهم الخاطئ وليتمكنوا من تصحيحه قبل فوات الأوان.

بعد آية: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾[الجاثية:2] تستعرض الآيات مظاهر القدرة الإلهية والنعم الربانية الدالّة على ربوبية اللهﷻ التي يناسبها ورود لفظ (رب) في الآية ما قبل الأخيرة؛ ولأن مظاهر القدرة المشار إليها تشمل محيط السموات والأرض فقد خُصَّت السموات والأرض بالذكر قبل أن تُجمع وما سواها في لفظ (لعالمين)، ولأن تعداد هذه المظاهر قد استغرق ثلاث آياتٍ فقد تكرر لفظ (رب) ثلاث مرات؛ ولأنها، بالإضافة إلى كونها مظاهر للقدرة، هي مظاهر للنعمة والفضل في الوقت نفسه فقد صُدِّرت الآية ما قبل الأخيرة بحمد اللهﷻ؛ ولأنه هو وحده الخالق المبدع المنعم المتفضّل فقد قدّم الجار والمجرور (لله) على المبتدأ (الحمد) لإفادة قصر الحمد على اللهﷻ.

بعد آيات استعراض مظاهر القدرة والنعمة يأتي الحديث عمن يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها؛ حيث يقول اللهﷻ في هذه الآيات: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[الجاثية:9].

وقبل الآية ما قبل الأخيرة تحدثت الآيات البينات عن جزاء الذين يعرضون مستكبرين عن سماع آيات الله تتلى عليهم؛ حيث يقول اللهﷻ عنهم في هذه الآيات: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾[الجاثية:34، 35].

- **المجاز والالتفات:**

في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾[الجاثية:34] "مجازٌ مرسلٌ علاقته السببية؛ لأن النسيان سبب الترك، وإذا نسي الشيء فقد تركه، وأهمله تماما"[1]، أما قولهﷻ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥﴾[الجاثية:35]فهو أسلوب التفات؛ حيث "التفت من الخطاب إلى الغيبة عندما انتهى إلى هذه المثابة التي صاروا إليها، فهم جديرون بإسقاطهم من رتبة الخطاب احتقاراً لهم، واستهانة بهم"[2].

❖ الأبعاد الدلالية:

وُصِف الذين يتبعون أهواءهم في أكثر من موضعٍ من هذا النص بأنهم لا يعلمون، كما حكت آياته قولهم: ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾[الجاثية:32].

وبالمقابل أشارت آياتٌ أخرى من النص نفسه إلى أنهم يعرفون أن هذا القرآن هو الحق من ربهم: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾[الجاثية:9]، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡم ﴾[الجاثية:23]، تماماً كما كان بنو إسرائيل على بينة من أمرهم وعلى علمٍ بأمور دينهم ودنياهم حين اختلفوا بغيا بينهم: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰت مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾[الجاثية:17].

وقد سبقت الإشارة إلى أن إصرار الذين يتبعون أهواءهم على إنكار ما يعرفون أنه الحق يصل بهم، تدريجيا، إلى مرحلة التأرجح بين إنكار الحقيقة التي استيقنتها أنفسهم والشكّ في صحتها.

يؤكد ذلك تكرار الإشارة إلى استكبارهم واتخاذهم آيات الله هزؤا: ﴿وَيۡل لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيم ٨وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ [الجاثية:7 – 9]، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡما مُّجۡرِمِينَ ٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

[1] – إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، (م7/ ج25 /ص155).

[2] – نفسه، الجزء نفسه، ص156.

لَكُم مِّن نَّصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٣٥﴾[الجاثية:31 – 35].

فقوله ﷻ:﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[الجاثية:8]، وقوله ﷻ: ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الجاثية:31]، وقوله: ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية:9]، وقوله: ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوا﴾ [الجاثية:35] تؤكد أن دوافع الإنكار والرفض لا تتمثّل في الجهل وعدم الاقتناع؛ بل في الاستكبار الذي يتمظهر في الاستهزاء للتلبيس على ضعاف العقول والأحلام، وفي هذا المعنى يقول الله ﷻ في سورةٍ أخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فُصِّلَت:26].

فلو لم يكونوا مقتنعين بأنه الحق لاستخدموا وسيلةً أخرى غير اللغو واللغط لمقارعة حجج القرآن الكريم؛ لكنهم كانوا على يقينٍ بأنه من غير الممكن أن تنتهي المواجهة المباشرة بين الحق والباطل بغلبة الباطل، ففضلوا المراوغات الكلامية التي بها يتمكنون من تمييع القضية وإظهار الكبرياء الزائفة؛ لكن آيات النص تُختم بعرض مصير هؤلاء المستكبرين يوم القيامة وإعلان الكبرياء الحقيقة لله وحده.

والله الموفق والمستعان، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

2- إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – بيروت، ط7، 1420هـ، 1999م.

3- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1388 هـ، 1968م.

4- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، د(ط،ت).

5- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ضبطه وصححه وخرج آياته وأحاديثه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ، 1997م.

6- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار مصر للطباعة، د(ط)، 1409 هـ، 1988م.

7- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421 هـ، 2000م.

8- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1373 هـ، 1953م.

9- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشآم للتراث، بيروت، د(ط،ت).

10- سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني. ابن ماجة، حقق نصوصه، ورقّم كتبه، وأبوابه، وأحاديثه، وعلّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، د(ط،ت).

10- السيرة النبوية (المعروفة بسيرة ابن هشام)، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق وتخريج وفهرسة: جمال ثابت ومحمد محمود وسيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، د(ط)، 1427 هـ، 2006م.

11- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، د(ط)، 1401هـ، 1981م.

12- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م.

13- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ، 2001م.

14- الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي، اعتنى بهذه الطبعة الجديدة وخرج آياتها وضبط أحاديثها الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1417هـ، 1997م.

15- النبأ العظيم. نظرات جديدة في القرآن الكريم، د.محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، القاهرة، ط10، 1429 هـ، 2008م.